



بقلم: فايز أبو شمالة*

المشابهة كبيرة بين حال الأنظمة العربية في القرن الواحد والعشرين وحال القبائل العربية نهاية القرن السادس الميلادي قبل أن ينضوا تحت راية الإسلام فقد كانوا متفرقين بين الولاء والتبعية لدولة الفرس أو الخضوع لدولة الروم وتلك الفرقة والتبعية كانت منطقية في ذلك الزمن الذي اتسم بالصراع بين القبائل وما رافق ذلك من تحايل على الاستتار بمصادر القوة بما في ذلك البحث عن حليف يوفر الحماية ولا ضير إن كان رومياً أو حبشياً أو فارسياً طالما كان قوة عظمى بمقاييس ذلك الزمان الذي غابت عنه العقيدة وتعارضت فيه مصالح القبائل العربية واشتد الصراع بينها على مراكز النفوذ ليكون طموح القادة أو أطماعهم في ذلك الوقت محكومة بقدرتهم على المكائد والفساد ونصب الكمائن للآخر والغدر به وتلك سياسة تتشابه في مضمونها مع سياسة القادة في الزمن الراهن والتي تقوم على تسخير العبيد والتبع من جهة والارتقاء في أحضان الحليف أو السيد من جهة أخرى لتصير العلاقة جدلية بين المهانة والدكتاتورية وبين الخنوع للحليف الخارجي والظلم والاستبداد الداخلي.

*الزمن العربي المتفكك

في ذلك الزمن العربي المتفكك والخانع تحالف عمرو بن هند ملك الحيرة مع الفرس وبمعنى أدق صارت مملكة المناذرة صنيعة الغرباء بقوتهم استقوت على أهلها وعلى بقية القبائل العربية فمصدر القوة والنفوذ مستمد من القوى الخارجية والتي تحرك الملك العربي عمرو بن هند بالريموت في كل شأن من شؤون المملكة وتفيد كتب التاريخ أن هذا النمط من التبعية للغريب كان قائماً بين مملكة الغساسنة في الشام ودولة الروم أيضاً.

المقاربة بين الزمن الماضي والزمن الحاضر ليس ترفاً ثقافياً بمقدار ماهي قراءة سياسية للواقع والمهدف هو التحذير فإن لم يجد نفعاً فالمهدف من المقاربة هو التنوير كمقدمة للتنوير وأزعم أن هذا هو دور المثقف وهذه هي وظيفة الإعلام الصادق في الزمن الذي استوحشت فيه وسائل الإعلام المعادية لتحرير الأمة وراحت تنفث سموم الخنوع والخضوع في مفاصلها.

*رحلة البحث عن الذات

تحالف مملكة المناذرة مع الفرس لم يرض قبائل العرب كلها ولما أقصد هنا الغساسنة خصوم المناذرة وإنما أقصد القبائل العربية التي رفضت في ذلك الوقت التبعية وتفاخرت بعروبيتها وبقدراتها واستقلالياتها عن الفرس وعن الروم معاً في رحلة البحث عن الذات وهؤلاء هم الذين وجدوا ضالتهن بالدين الإسلامي فاحتموا به من الغرباء وهم الذين تمردوا من قبل على الأنظمة الحاكمة التي كانت خاضعة للفرس والروم وتفاخروا في المقابل بعروبيتهم من خلال التفاخر بالقبيلة وأخلاقها العربية وشيمها التي ظلت مصدر فخر ورفضت الانصياع لأوامر ملك العرب والمهات خلف عطاياه وهذا الذي ظهر في معلقة عمرو بن كلثوم حين خاطب الملك عمرو بن هند قائلاً:

أَلَا لَيْجُ هَلْ بِنَ أَحَدٍ عَلَيْنَا
فَنَجْمَلُ فَوْقَ هَلْ الْجَاهِلِينَ

بِأَيِّ مَشْيِيئَةٍ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ
نَكُونُ لِقِيْلِكُمْ فِي هَذَا قَطِيْنًا
بِأَيِّ مَشْيِيئَةٍ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ
تَطِيْعُ بَنِي الْوَشَاةِ وَتَزْدَرِيْنَا

هذه اللغة تخيّل المتحدي هي أبيات شعرية تحمل كل معاني الرفض للواقع الدليل الذي قادت به بعض القبائل وهي تسلم زمام أمرها للغرباء فالخبر هنا تجاوز حدود القبيلة الجغرافية لينتقل إلى الاستخفاف بالملك العربي الذي لا يملك من أمره شيئاً ومن ثم الاستعداد للمواجهة فالحديث المباشر مع الملك دليل الندية فإذا كان عمر بن هند ملكاً مدعوماً من الفرس فإن عمرو بن كلثوم هو زعيم المعارضة المدعوم من القبيلة أو من القبائل المرافضة للتبعية والمهانة من هنا جاء التهديد للسلطة بقوله: ونجهل فوق جهل الجاهلين.

العرب في الزمن الراهن في حاجة إلى معارضة فاعلة مثل معارضة عمرو بن كلثوم يصرخ في وجه الحاكم ويعترض عليه ويرفض أسلوبه في الحكم ويطالبه بالعدل والانصاف ويتحداه في عقر مملكته فالذاكرة تحفظ للشاعر هذا التحدي رغم قوة المخابرات والمعملاء التي كان يتمتع فيها ملك الحيرة في ذلك الوقت ورغم الدعم الدولي الذي شجعه على البطش بقومه والمتفرد بالقرار دون مساعلة أو محاسبة.

لم يكتف الشاعر عمر بن كلثوم بالمراجعة والمساءلة والعتاب للملك عمرو بن هند فهذه اللغة التي تجاهلها الملك العربي كانت محرضاً للشاعر عمر بن كلثوم كي يتقدم خطوة في المعارضة ورفض الخنوع فقال له:

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَأَلَ الْمَنَاسِ خَسِفًا
أَبْيْنَا أَنْ نَقِرَّ الْمَدْلَ فِيْنَا
إِذَا بَلَغَ الْفَطَامَ لَنَا صَبِي
تَخِرُّ لَهُ الْحَبَابُ سَاجِدِيْنَا

هذا الحديث الشعري لا يقف عند حد الفخر والاعتزاز بالنفس إنه الغضب على نظام الحكم وهذا لا يمثل موقفاً شخصياً أو قبلياً وإنما يمثل حراك أمه ترفض المذلة فالحاكم الذي يسود الناس خسفاً ويذلهم هو حاكم مأجور موظف لدى القوى الدولية وأمثال هؤلاء الحكام منبوذون من الشعب مرفوضون من مثقفي الأمة الذين كتبوا الشعر وحرصوا قادة القبائل على الاعتزاز بعروبيتهم أو التفاخر بقبيلتهم فلا فرق هنا بين القبيلة والعروبة طالما كان الهدف هو صراع الجبابرة والتخلص من إذلهم للشعوب. حين ندقق في المشهد العربي الذي كان قائماً قبل أكثر من ألف عام وبين المشهد العربي القائم في هذه الأيام نجد القواسم المشتركة لا تقف عن حدود تبعية الملوك والحكام لقوى إقليمية أو دولية ولما تقتصر المقاربة هنا على تسليط الضوء على تسلط الحاكم والبطش بالشعوب ولما هي بالتفرد بالقرار ولما هي قرينة توارث الحكم لكن المشابهة في الخواتيم فنهاية الملك عمرو بن هند لا تختلف كثيراً عن نهاية حسني مبارك أو زين الدين بن علي أو نهاية علي عبد الله صالح أو معمر القذافي أو عبد العزيز بو تليلقة أو النهاية التي تنتظر الآخرين فأمثال عمرو بن هند الذين أخذتهم العزة بالإثم لانت رقابهم لسيف عمرو بن كلثوم وأمثاله من شباب العرب الدافضين للمذلة والتي تأبى نفوسهم المتطبيع مع الأعداء والخضوع للغريب.

*الاحتماء بالقوى العظمى

ومن الحكمة الانتباه إلى أن نهاية عمرو بن هند مقتولاً على يد عمرو بن كلثوم فيها إشارة واضحة إلى أن الاحتماء بالقوى العظمى وتسليمها مقدرات الأمة لم يكن منجياً للملك من ثورة الشعوب فما أسهل أن تستبدل القوى الأجنبية موظفاً لديها انتهت صلاحيته بموظف آخر تم إعداده خلف الكواليس.

ومن المفارقات العجيبة أن الشاعر عمرو بن كلثوم سيد قبيلة بني تغلب قد جاء من البحرين ليلتقي مع عمرو بن هند على شاطئ نهر الفرات ولما سمع باستخفاف أم الملك بأمه ليلى بنت المهلهل الزير سالم اختطف سيف الملك نفسه وقطع به رأسه فهل يتعظ حكام العرب في هذه الأيام من نهاية الملك عمرو بن هند؟ أم سيغري تكبرهم وتغطر سهم أمثال عمرو بن كلثوم للقيام بواجبهم في تخليص القبائل العربية من التبعية للغريب والتجبر على القريب؟